

الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسي والأمريكي



د. عبد الحكيم حسان (*)

ربما لم يلق فرع من فروع المعرفة من الاضطراب في مفهومه، وعدم التحديد في مناهجه واتجاهاته ما لقي الأدب المقارن . فبالرغم من مضي ما يقرب من قرن على استوانه فرعاً من فروع الدراسات الأدبية يُعترف به في كثير من البلدان، فإن المشتغلين به لا يزالون أبعد ما يكونون عن الاتفاق على كلمة سواء بصددّه.

ولعل هذا الخلاف يرجع أكثر إلى أن مفهوم الأدب المقارن ظهر مرتبطاً بالنزعة القومية في القرن التاسع عشر، بالرغم مما يبدو عليه من مسحة العالمية التي تتضح في أهدافه؛ مما أوجد منذ البداية نوعاً من عدم الاتساق بين المفهوم والأهداف. كان القرن التاسع عشر عصر محاولة التوفيق بين المتناقضات، بين الهدم والبناء، بين النفي والإثبات، بين العلم والدين، بين العقل والقلب، بين الماضي والحاضر، وبين الاستقرار والتقدم .

وما إن انتصف ذلك القرن حتى كانت كل أمة أوروبية تقريباً تحاول أن تحقق بطريقتها الخاصة، وفي ظل ظروفها الفكرية والثقافية والفنية الخاصة -

(*) أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة والجامعات العربية .

فكر وإبداع

مفهوماً لتلك العبارة الغامضة التي كانت تتردد على ألسنة دارسي الآدب وغيرهم من المفكرين، وهي عبارة "الآدب المقارن".

غير أن سيطرة الفكر والثقافة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وما تتميز به العقلية الفرنسية من قدرة كلاسيكية على التنظير - مكن فرنسا من أن تفرض في أخريات القرن التاسع عشر مفهوماً للآدب المقارن يلتقي جزئياً على الأقل - مع أكثر الاتجاهات السائدة في الأقطار الأوروبية؛ مما يسر لهذا المفهوم أن يكتسب لنفسه أرضاً جديدة في أكثر البلاد الأوروبية، معبراً بذلك عن اتجاه أوروبي في الآدب المقارن .

وقد استكملت صياغة هذا المفهوم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن أهم من أسهموا في تحديد هذا المفهوم الفرنسي "بالدنسبرجيه" في تقديمه للعدد الأول من مجلة الآدب المقارن الفرنسية (١٩٢١م) بعنوان الآدب المقارن : الكلمة والشئ و "فان تيجم" الذي أخرج كتاباً بعنوان "الآدب المقارن" (١٩٣١م) عرف فيه بهذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية . وحدد فيه ميادينه. وبين مناهج الدراسة فيه، و"جويار" في كتيبه التعليمي الذي صدر في منتصف هذا القرن مع مقدمة قصيرة لـ "جان" إن "البنويوة" مفهوم موغل في التجديد، يختلف تصوره من ذهن إلى ذهن، ولذلك يصعب تعريفها، ويكتفي عادة بوصفها وبيان خصائصها . وهي تقوم أساساً على عمليتي التحليل والتركيب . ومن خلال هاتين العمليتين ينتج لنا شيء جديد هو "قابلية الفهم" . وعلى هذا فإن التأمل أو الإبداع البنائي ليسا "انطباعاً" عن العالم، ولكنهما صنع حقيقي لعالم آخر يشبهه، لا نسخ للأول وإنما لجعله قابلاً للفهم والإدراك.

من هنا يتضح الاختلاف بين البنيوية ومنهج البحث في التاريخ . فهي تعترف بفكرة الصدام بين بنية وأخرى خارجة عنها، على عكس منهج البحث في التاريخ الذي يقوم على فكرة الصراع داخل الشيء الواحد. ثم إن البنية شبكة من العلاقات الوظيفية تكشف عن الأسباب في إطار الكل القائم، وتتنبأ في ضوء الحركة العادية للعلاقات في داخلها، بخلاف منهج البحث في التاريخ الذي يجعل السابق سبباً للاحق، ومن ثم، فليس هناك مجال لتطبيق منهج البحث في التاريخ على العلوم الإنسانية؛ إذ لا يوجد فيها طابع السبق واللاحق .

ومن وجهة نظر البنيوية، تركز الدراسات الأدبية بصفة عامة على تحليل العمل الأدبي إلى عناصره المكونة له . ولما كانت هذه العناصر ليست إلا وسائل لتحقيق نوع معين من التأثير الجمالي ، كان لابد من إعادة تركيبها لاكتشاف بنية العمل الأدبي ككل . أما التركيز على دراسة العوامل المحيطة بالعمل الأدبي، كلما كانت الدراسة تتم على أساس المنهج التاريخي وفي ظل الفلسفة التوفيقية - فإن ذلك يؤدي إلى نتيجتين كلتاها ضارة بالدراسة الأدبية الصحيحة: أولاها إحلال العمل الأدبي المرحلة الثانية من الاهتمام؛ والأخرى تجزئة العمل الأدبي حسب نوعية الظروف الموضوعية تحت الدراسة، ودراسة تضحي بالعمل الأدبي في سبيل أشياء خارجة عنه لا يمكن أن تكون دراسة أدبية صحيحة؛ لأنها تهمل صفة الأدبية في موضوع دراستها، وتستبدل العلم بالنقد والإدراك العقلي بالإدراك الجمالي .

من هنا كان النصف الأول من القرن العشرين فترة ردود أفعال ضد وضعية النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فالحركات والتجمعات الأكاديمية والنقدية في القرن العشرين التي تختلف فيما بينها من حيث

مناهجها وأهدافها - مثل كروتشي وأتباعه في إيطاليا، والشكالية للروسية وفروعها وتطوراتها في بولاندا وتشيكوسلوفاكيا، وعلم الأسلوب الألماني الذي كانت له أصداء في البلاد الناطقة بالإسبانية، والنقد الوجودي في فرنسا وألمانيا، والنقد الجديد في أمريكا، ونقد الأسطورة المستوحى من الأنماط النموذجية لـ "يونج"، وحتى التحليل النفسي الفرويدي .

كل هذه أيًا كانت عيوبها وأوجه القصور فيها تجمعت في رد فعل واحد ضد الحقائق الخارجية والاتجاه التجريبي . ونتيجة لذلك ظهر في منتصف القرن العشرين مفهوم أمريكي للأدب المقارن في مقابل المفهوم الفرنسي الذي كان وليد اتجاهات القرن التاسع عشر التي مر ذكرها .

ويلخص بحث "رينيه ويليك" أزمة الأدب المقارن الذي ظهر في هذه الفترة مأخذ الاتجاه الجديد في الأدب المقارن على المفهوم الفرنسي في نقاط ثلاثة، هي عدم وجود تحديد واضح لموضوع الأدب المقارن ومناهجه، وعدم التركيز على العمل الأدبي في الدراسة، والانفعال بعوامل قومية . فقد رأى "ويليك" أن البرامج التي وضعها رواد المفهوم الفرنسي لم تستطع أن تقدم موضوعًا واضحًا ولا منهجًا محددًا . فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهج قديم للبحث ، ووضعوا على كاهله اليد الميتة لحقائقة القرن التاسع عشر وعلميته ونسبيته التاريخية . كما أن محاولة "فان تيجم" التفريق بين الأدب المقارن وبين الأدب العام لم تنجح؛ لأنها ضيقت مجال الأدب المقارن؛ بحيث قصرته على دراسة ما هو أجنبي في الأدب . فأصبح مجموعة غير متماسكة من الشظايا وشبكة من العلاقات، لا تفتأ تنقطع، منعزلة عن الكل ذي المعنى .

كما رأى "ويليك" في المحلولة المتأخرة لكل من "كاريه" و"جويلر" توسيع نطاق الأدب المقارن بجعله يشمل دراسة النزعات القومية والأفكار التي تكونها أمة عن أخرى فرضاً لعناصر غير أدبية على الأدب المقارن . والسبب في ذلك يرجع إلى أن "فان تيجم" وأتباعه نظروا إلى دراسة الأدب - تحت تأثير وضعية القرن التاسع عشر - على أنها دراسة للمصادر والتأثيرات مؤمنين بالتفسير السببي، ويستثيرهم تتبع الأعراض والموضوعات والشخصيات والمواقف والحكايات ... إلخ إلى مصادر أقدم تاريخاً.

وأخيراً رأى "ويليك" أن النزعة القومية التي تبرز في كتابات كثير من رواد المفهوم الفرنسي للأدب المقارن، أدت إلى نظام غريب من "إمساك الدفاتر" الثقافي؛ من أجل إقامة أهرام من الفضل لأمة ما، عن طريق إثبات أكبر عدد من مظاهر التأثير من جانبها في أمة أو أمم أخرى، أو بإثبات أن الأمة التي ينتمي إليها المؤلف قد تمثلت كاتباً أجنبياً في أمة أو أمم أخرى، أو بإثبات أن الأمة التي ينتمي إليها المؤلف قد تمثلت كاتباً أجنبياً عظيماً أحسن مما فعلت أية أمة أخرى .

وأشار "ويليك" إلى أن ذلك يظهر بسذاجة في القائمة التي وضعها "جويلر" في كتيبه التعليمي، والذي نجد فيه مربعات فارغة لرسائل لم تكتب بعد عن روتار في إسبانيا، وكورني في إيطاليا، وباسكال في هولندا، وهكذا . ويقول إن كثيراً من الباحثين أدانوا دراسات الحاسبات الإلكترونية هذه، وأعلنوا مبدأ أن لا استناداً في مقارنة الآداب .

كان مقال "ويليك" هذا بمثابة إعلان رسمي بمولد مفهوم جديد للأدب المقارن يمكن تسميته في مقابل المفهوم الفرنسي بالمفهوم الأمريكي، وإن كان

ظهور هذا المفهوم الجديد لم يزد إلى اندثار المفهوم القديم الذي لا يزال العمل جارياً على أساسه في كثير من الجامعات حتى الآن . وقد صدر عن المقارنين الأمريكيين عدد من تعريفات الأدب المقارن من وجهة نظر هذا المفهوم الجديد، فقد عرفه "ريماك" بأنه "دراسة الأديب فيما وراء حدود بلد معين . ودراسة العلاقات بين الآداب من ناحية . والمجالات الأخرى للمعرفة والاعتقاد كالفنون (الرسم والنحت والمعمار والموسيقى مثلا) والفلسفة والتاريخ والعلوم .